Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

رسم بياني لتطور الفكر السياسى عند الغزالي

الدكتور جواد الطباطبائي

يعتبر أبو حامد الغزالي من أطلع وجوه تاريخ الفكر بايران في العصر الإسلامي. و إذا لم يكن بالمستطاع اعتبار الغزالي من المشهورين الكبار في العلوم العقلية و النقلية، غير أنه يعد على رأس هؤلاء بسعة علمه و تنوّع معلوماته. لقد بلغت شهرة الغزالي الكبيرة حداً تجاوزت فيه حدود ايران و البلاد الاسلامية إلى بلاد الغرب، حتى ليعتبر هناك أكبر ممثل لاسلام السنة.

و يمكن القول بلا ترديد أن أبا حامد محمد الغزالي يعتبر من معدود العلماء الإيرانيين المعدودين الذى تعدى صيته حدود مسقط رأسه ونال منزلة تفوق مابلغه من الشهرة في وطنه و تكريم ذكراه. و الغزالي شخصية معتقدة و محيطة بالعلوم، و قد بادر الباحثون الغربيون إلى دراسة آثاره بمختلف اللّغات الأدبية و تقييم آرائه و أفكاره. و العجيب أنّ الآداب الثرّة التي تمّ الوصول إليها من البحوث و التحقيقات حول شخصية الغزالي و حياته و آثاره تعتبر انعكاساً لما تعرضت له حياة هذا العالم الإيراني الشهير من حلوها و مرّها؛ حتى ليمكن القول أن اسمه و ذكراه في الحياة و الموت كانا ممتزجين بالتعارض و التناقض بدرجة واحدة. و لابدّ من البحث عن مصدر مختلف الكلام و الآراء المتعارضة التي قيلت حول ذلك في صميم تقلبات حياته و شانها و تطوره الفكري و أعماق كتاباته الفريدة.

و مما لاشك فيه أنّ شخصية الإمام محمد الغزالي لم تكن على و تيرة واحدة لا تتغير. و قد أدت احوال و أطوار أبي حامد من جهة و غزارة كتاباته و تنوّعها من جهة أخرى إلى أن يستعين كل من بحث حوله، بظنّه، و هذا لايعني أنّ الباحثين في آثار الإمام الغزالى لم يكشفوا عن اسراره في باطنه، و حتى لو استطعنا الرسوخ في أعماق ذهن الغزالي و أفكاره، فإننا لن نجد تلك الشخصية ذات النسج الواحد، و شفافية الفكر التي نراها في كثير من مشاهير تاريخ الفكر الإيراني. فأبو حامد محمد الغزالي ذو شخصية معقدة و شاذة، و نعتقد بأنه يجدو البحث حول هذا التعقيد في نطاق فكره السياسي اكثر من المجالات المتنوعة الأخرى التي خاض الغزالى غمارها.

و سنرى فيما سيرد أن الغزالي فيلسوف سياسي مثالي، و أنه يسعى بالنظر إلى رؤيته الخاصة للاسلام إلى رسم صورة لمجتمع فاضل و مرجوّ؛ و هو في نفس الوقت عالم لم يغب عن باله وقائع فنيّة لاسياسة و العلاقة بين القوى الموجودة في المجتمع. و كان يتدخل في السياسة عمليا و نظرياً. و الحقيقة أن الامام محمد الغزالي، المدرس البارز في نظامية بغداد، و أهم من أحيا فكر الاسلام السني، و الذي كانت تربطه بالخليفة و السلطان و الوزير علاقات حسنة و يعتبر

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

مستشارهم الخاص، كان يغتنم كل فرصة لابداء آرائه و افكاره، و كان يساعدهم بنصائحه لانتخاب السبيل. و اذا كان المقتضى موجوداً و المانع مفقوداً، لا يألو جهداً عن مساعدة وزير أو أمير للوصول الى السلطة في حدود الواقع السياسي، و ان لم يؤد اختياره دائماً إلى نتائج محمودة.

و كان للغزالى من وجهة النظر هذه مكانة خاصة بين مشاهير العلم و الأدب و الدين الايراني. فقد كان لأكثرهم ـ إن لم يكن كلهم ـ وضع استسلامي تجاه السياسة و السلطة السياسية، و لم يألوا جهداً عن تبريره، بينما قلة منهم أعرضوا عن كل نوع من السلطة، و ظلوا أوفياء لنظامهم المثالي و مدينتهم الفاضلة، بالتأكيد على أن كل سلطة في النهاية سلطة جابرة و كل صاحب سلطه جائر. و يمكن القول أن كلا الطريقتين متساويتين في الخطأ عند الغزالي[1]؛ فهو في نصحه يوجه أنظار مخاطبه إلى الأوضاع و الأحوال السياسية ضمن قبول الواقع السياسى القائم بالاعتماد و على سياسته الفاضلة، و لكن بقدر مقدور، و ينصحه بتحسين الوضع الموجود؛ و يبدو من رسائل الغزالي إلى الأمراء و الوزراء أنه عالم مدرك لروح الزمان و دقيق في الحوادث الموجوة و الاهتمام بها.

و لابد هنا من النظر إلى نقطة هامة و هي أنه رغم وجود نظام سياسي مثالي و دقيق و محدود في فكر الغزالي غير أنه نفسه كان يرى أن احتمال تحقيق مثل هذا النظام ضعيف جداً إلى حد أن الغزالي المثالي المتطرف و المشرع لا يحقق شيئاً في نظرته الواقعية. و ليس معنى هذا الكلام أن الواقعية السياسية لدى الغزالي تحل دائماً محل سياسته المثالية الهادفة؛ فليس هذا في رأينا صحيحاً، و الأفضل أن نقول: إن طلب المثالية السياسة و الواقعية يسيران جنباً إلى جنب في تطورهما و تكاملها عند الغزالى؛ و الحقيقة أن المشكلة الأساسية في الفكر السياسي تكمن في هذا التعارض و التنافر بين هذين الاتجاهين إلى المسائل السياسية؛ هذا التنافر الذي ينبغى دراسته و تقييمه بدقة. و لابد من القول أن الغزالي واجه موقفاً صعباً لاحتفاظه بالتعارض و التنافر بين المثالية و الواقعية، و التنسيق و التوفيق بينهما إلى حد أنّ بعض المفسرين و الشارحين لآثاره شكّوا في صدق نظرياته و رسوخ اعتقاداته؛ و ربما لم يبتعدوا كثيراً في شكلهم هذا عن جادة الصواب[2].

و كما أشرتُ سابقاً إلى أن أبا حامد محمد الغزالي هو واضع نظرية الواقعية السياسية أيضاً، يمكن القول أن الغزالي من حيث أنه واضع نظرية الواقعية السياسية يحتل بكتابه نصيحة الملوك مكانة خاصة بين مؤلفي كتب السياسة. و مكانتة الممتازة هذه تجعل من الصعب شرع نصيحة الملوك و تحديد مكانة و منزلة هذا الكتاب في مجمع الفكر السياسي عند الغزالي. و سنسعى في هذه المقالة إلى عرض هذه المشكلة و ابداء عناصر لجواب محتمل. فنحن نعتقد بأن الغزالي واضح نظرية طلب المثالية السياسية، و كان يلتفت إلى لوازم السلطة السياسية و الزاماتها بالشكل الذي كانت عليه في خلافة العباسيين و السلاجقة دون أن يحيد أو يُعرض عن مبادئه و نظرياته. و كان يسعى في تحليلها لأن يسوق السلطة السياسية نحو الاعتدال و العدالة و اصلاحها بالاستفادة من مكانته العلمية العالية التي كانت موضوع اعتماد الخلافة و السلطنة[3].

و لا بد أن نذكر باختصار أن فكرة «الثورة» أي تغيير العلاقات الاجتماعية بالقوة و اسقاط السلطنة السياسية لاوجود لها في تفكير العهود القديمة، و لهذا، فإنّ طلب الفلاسفة السياسيين للمثالية بصورة عامة ليس أكثر من «مدينة فاضلة»، و لا وجود لها في الواقع و صميم المجتمع. و من هنا يمكن القول أن كتّاب «المدينة الفاضلة» لايهتمون بالواقع الاجتماعي الموجود واقعياً، و بادروا فقط إلى تصوير «مدينة فاضلة» يمكن للانسان بالسير نحوها حتى يصبح سعيداً غير أن الكتاب حول المدينة الفاضلة في العهود القديمة لم يبحصوا عن طريق الوصول إليها و تحققها عملياً؛ لأن كل سعى سياسي في رأيهم لتحقيق أهداف المدينة الفاضلة كان يستلزم اعمال و استقرار «رابطة الغلبة». و الواقع أنه كان في الفلسفة السياسية القديمة تعارض لايمكن حله بين مجتمع الغلبة و المدينة الفاضلة.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

و من ناحية أخرى فإنّ هذا التعارض بين مجتمع الغلبة و المدينة الفاضلة فرع من طبيعة و ماهية الفلسفة القديمة و تنفي كل نوع من التصرف في نظام العالم و العلاقة بين بني آدم. و على هذا فإن الفلسفة السياسية و المدينة الفاضلة في العهد القديم يمكن أن تكونا فقط أفقاً للحياة السعيدة، يبادر فيها الفضلاء بالسير و السلوك نحوها تحرراً و اختياراً. و الخلاصة أنّ الفلسفة السياسية القديمة كانت تهتم باصلاح المجتمع و جعل العلاقات الاجتماعية و السياسية معتدلة مع نفي مفهوم «الانقلاب» بالمعنى الجديد للكلمة، و كانت تسعى بقدر الإمكان إلى توجيه الأفراد نحو الفضائل الانسانية و بالتالي الى حياة مقترفة بالسعادة.

و كذلك كانت فكرة الانقلاب عند كتّاب السياسة فكرة غريبة، فمؤلفو كتب السياسة كانوا بدورهم يهتمون بلوازم التفكير القديم و الزاماته و لا يستطيعون تجاوز حدوده، غير أن اختلاف أساسي يفصل بين مؤلفي كتب السياسة و بين فلاسفة المدينة الفاضلة. و كما سبق أن فلاسفة المدينة الفاضلة ينفون اساس الفكر السياسي القائم على الغلبة، لأنهم لايقبلون التصرف في العالم و التسلط على الانسان، بينما يقوم الأساس النظري لمؤلفي كتب السياسة على الغلبة و السيطرة على الانسان.

و قد بيّنا في مقالة «مقدمه بر تاريخ انديشه سياسي در ايران» (مقدمة تاريخ الفكر السياسي في ايران) أن الفكر السياسي في حضارة ايران في العهود الاسلامية يتعلق بصورة عامة من حيث الماهية و الطبيعة بالعهود القديمة. و كذلك يمكن القول بناء على ما أشرنا إليه من ملاحظات في هذه المقالة، انه لم يسع أحد من الممثلين الكبار للفكر السياسي في ايران و العاملين على الجمع بين السياسة و المدينة الفاضلة إلى الجمع بين الغلبة و التأمّل في السياسة القائمة على العلاقات الفاضلة. و يبدو من الوضع الحالي لمعلوماتنا عن تاريخ الفكر السياسي في ايران و بالنظر إلى آخر ما بين ايدينا، أنّ أبا حامد محمد الغزالي هو العالم الايراني الوحيد الذي إن لم يجمع بين السياسة و المدينة الفاضلة، و لكنه بذل في كل منهما على الأقل جهوداً تستحق الذكر. و بناء على هذا فإن البحث في آراء الغزالي السياسية ينبغي أن يكون أهم فصول تاريخ الفكر السياسي في ايران؛ و هو تاريخ لم نستطع حتى الآن أن نعرض حتى مخططاً له[٤].

و ان كنا لانجد في بحوث الايرانيين حول الغزالي و التي لاتتجاوز عدد أصابع اليد حديثاً ذامعنى إلى حدما عن سياسة الغزالي، لكن تحقيقات المستشرقين في الغرب ملأ لحسن الحظ هذا الفراغ إلى حدما و ذلك بالنظر الى اهمية الغزالي و مكانته في تاريخ الفكر السياسي، و لابد من الاضافة على الفور أنّ أهم تحقيقات المستشرقين حول سياسة الغزالي تتعلق بالقسم الخاص بالسياسة الفاضلة عنده. فقد سعوا غالباً إلى ترميم الخطوط الأساسية لسياسية الفاضلة بالاعتماد على كتاب احياء علوم الدين و بالرجوع الى آثاره الفقهية؛ و لذلك فإن كتابه المهم نصيحة الملوك الذي لايعتبر فقط أثراً ذاأهمية قصوى بين آثار الغزالي بل هو أثر عظيم لم يكن موضع اهتمام في تاريخ الفكر السياسي، و ربما كان سبب ذلك أنّ نصيحة الملوك أثر استثنائي بين ماكتبه الغزالي. و ليس من السهل بيان سبب وجوده بالنظر الى مجموع آثاره و إن كان من المستطاع ايراد جواب واضح نسبياً لهذا اللغز بناء على المعلومات التي لدينا عن حياة الغزالي السياسية[٥].

و سنسعى في مقالتنا هذه إلى بيان آراء الغزالي السياسية في نصيحة الملوك و مكانة هذا الأثر بين كتاباته بقدر ماتسمح لنا المعلومات الحالية المحدودة عن أوضاع زمن الغزالي التاريخية و انشغاله بسياسة تلك الفترة. و بناء على هذا سنغضي الطرف عن المثالية في آراء الغزالي السياسة و نسعى الى إدراك كيفية انتقال الغزالي من السياسة المثالية الى السياسة الواقعية. و تكمن أهمية الغزالي في تاريخ الفكر السياسي بايران أن رسم مخطط لآرائه السياسية، يمكن أن يساعد على رسم مخطط بياني للفكر السياسي في ايران بصورة عامة؛ ذلك أن التطور الفكري عند الغزالي في اطار الآراء السياسية على الأقل هو انعكاس لتطور الفكر

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

السياسي في ايران و انتقاله من المثالية إلى الواقعية، و من الفكرة المثالية التي هي المدينة الفاضلة الى قبول أصالة السلطة و العلاقات القائمة على السلطة و الغلبة.

إن أكثر شراح آثار الغزالي ولاسيما المعارضين له أمثال ابن رشد[٦] لم يأخذوا بنظر الجد انقلابه الفكري و تغييباته الباطنية، و شكوا في صدق الغزالي؛ و لا نقصد المبادرة إلى تقسيم حكم من هذا النوع الاذى لم يكن أحياناً بلاأساس. و حتى لوأننا أيقنا بصدق الغزالي أو عدم صدقه، فلا يمكن لهذا اليقين أن يحل عقدة عملنا الذي نريد فيه بيان منطق تطور الفكر السياسي عند الغزالي. فليس هدفنا ايضاح التطور الذهني عند الغزالي العالم المتشرع، و إنما دراسة امكانية التحليل العيني للمنطق الباطني في آرائه السياسة. و على هذا لا يمكن للتطور الذهني و مخططه البياني أن يكون اكثر من اشارة فقط. و المسألة الأصلية أن الغزالي كان على كل حال مشرعاً لأهل الفكر السياسي، والتدخل في علاقات السلطة، حتى أنه كان نفسه يساهم في توزيع العقدة السياسية عامة، و لا سيما حينما كان مدرساً في نظامية بغداد، في الوقت الذي كان تأسيس نظامية بغداد و في الأساس نفس تأسيس خواجه نظام الملك الطوسي لها والتدريس فيها عملاً سياسياً؛ والحقيقة أنه كان على النظامية أن توفر «النظام الايديولوجي» الذي يستطيع أن يحفظ بيت الخلافة العباسية المتهدم من أساسه قائماً لفترة ولو ظاهرياً فقد كانت خلافة العباسيين تواجه في عهد حكم الأتراك الساجقة خطرين رئيسين من الداخل و الخارج؛ خطرين كل منهما حارب اركان الخلافة، فكانت الخلافة تشتبك في الداخل مع الانتفاضة الشيعية الاسماعيلية و في الخارج مع الصليبيين، دون أن تجد حلاً قاطعاً لهاتين الأزمتين. ففي عهد الغزالي توصل كل من الصليبين و الاسماعيليين إلى تدوين نظرية دقيقة و ملتحمة، و لذلك لم تكن المواجهة معهما مواجهة عسكرية صرفة؛ بل كان على الخلافة العباسية أن تتسلح بالسلاح النظري لاسلام السنة أيضاً. و لذلك فإن تأسيس النظامية بصورة عامة و العمل و الاقدام الفردي للغزالي كان في جميع أبعاده سياسياً و لا يمكن ألّا يكون كذلك.

أما الخطر الذي كان يواجه الخلافة من ناحية الصليبين، فقد كان في الحقيقة خطراً من خارج الحدود. و هو على كل حال بعيد عن مركز انتشار سلطة الخلافة السياسية؛ و لذلك كان خطراً أضعف و لاأهمية له بالنسبة إلى الخطر الداخلي تقريباً. و لهذا السبب كان أكبر سعي الغزالي يتجه نحو الصراع الايديولوجي مع الخطر الداخلي بحيث كان همّ الغزالي و شغله الشاغل مهاجمة الباطنيين و الاباحية، بينما كانت اشاراته إلى المسيحية تنحصر في حواشي آثاره.

و هنا لابدّ من الاضافة بناء على ما مرّ و اغتناماً للفرصة أنّ تقدير الغزالي للخطرين الداخلي و الخارجي و اهتمامه بالخطر ـ أو من الأفضل، القول بالأزمة الداخلية و خلافة العباسيين ـ يدلّ على تحليله الواقعي للسياسة؛ ذلك أن ماكان يعرّض الخلافة العباسية بصورة عامة و وحدة اسلام السنة إلى الخطر هو الأزمة الداخلية، لأنها تملك في داخلها القدرة السياسية الايديولوجية من جهة، و لأنها خطر يمكن أن يهدّدها جدّياً من جهة أخرى. و تثبت صحة تحليل الغزالي تحليل عمل اعدائه أيضاً، الذين يعتمدون على سلطة سياسية ايديولوجية من نوع آخر ولكن بنفس المنطق الداخلي. يقول ب. لويس حول ذلك: «كان ضحايا الاسماعيليين ـ ماعدا عدد محدود ـ من السنة، فلم يكن الاسماعيليون يهاجمون الاثنى عشريين أو الشيعة الآخرين. و لم يجرّدوا خناجرهم ضد المسيحيين و اليهود و المحليين، حتى رنّ عدد هجماتهم على الصليبيين في الشام كانت تعد على الأصابع... فكان عدو الاسماعيليين هو الجهاز السياسي و العسكري و الاداري و الديني عند السنة؛ و قتل السنيين كان للارهاب و اضعاف هذا الجهاز و اسقاطه أخيراً»[٧]. و يمكن القيام بمثل هذا التقييم في معسكر المعارضين للاسماعيليين أى في الخلافة و أصحاب النظريات فيه. يقول الغزالي في المنقذ من الضلال عن السبب الذي دعاه إلى المبادرة لمذهب أهل التعليم: و قد راج عمل مذهب أهل التعليم و هذا في رأي المشرعين من السنة كالغزالي يمكن أن

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

يوخر أسباب زوال الشريعة و اضمحلالها من كل ناحية. لقد استطاع الاسماعيليون قبل هزيمة الخلافة العباسية للحركة الفاطمية أن يضعوا أو يدونوا ايديولوجية منظمة و دقيقة أثارت اهتمام جميع الطبقات المثقفة في ذلك العصر[١٠]. و على هذا فقد ظهر في هذه الفترة المتأزمة التي كانت فترة احياء عالم السنة أيضاً «تركيب جديد من مذهب السنة يتضمن جواباً للمنافسة الفكرية في الآراء الاسماعيلية من جهة، و ينافس الجاذبية القائمة في المذهب الاسماعيلي من جهة أخرى»[١١].

و مع وصول اسماعيليي ايران إلى السلطنة، ظهر تفسيران متضادان للدين الاسلامي؛ و سلطتان سياسيتان ـ و بالأحرى القول سلطة الاتراك السلاجقة و ضد سلطة الدعوة الجديدة ـ وقفتا وجهاً لوجهٍ و بادرتا الى الصراع و المنافسة. و لم تكن المبادئ الاسماعيلية خالية من الجاذبية و شاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإسلام المعصوم القائم بالحق، عنّ لي أن أبحث عن مقالاتهم لأطلع ما في كتبهم، ثم اتفق أن ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم، فلم يسعني مدافعته و صار ذلك دافعاً للباعث الأصلي من الباطن[٨].

و على كان حال، فإنّ وصول الاسماعيليين إلى السلطة أحدث تطوراً عميقاً في العلاقات بين الشيعة و السنة، وقد وجدت الانتفاضات الشيعية بصورة عامة مناصرين لها من جميع الطبقات و الجماعات التي كانت قد ضاقت ذرعاً من ظلم خلافة بغداد و جورها، ولكن ظهور الحركة الاسماعيلية، و هو الجناح المتطرف من الشيعة، استطاع أن يخرج مؤقتا من الساحة أتباع التقية و اليقظة و الاحتياط[٩]. فقد كان هدف الشيعة الاسماعيليين الأساسي اسقاط الخلافة بالقوة؛ و كما يقول ب . لويس: كان المذهب الاسماعيلي بشكله الجديد للكثير من الذين يكرهون الحكم السلجوقي انتقاداً و تحليلاً، خدّاعاً لعقائد السنة المتعارف عليها مقترنة مع اتجاه ثوري مؤثر. «والدعوة القديمة» للمذهب الاسماعيلي باءت بالفشل، فقد كانت الدولة الفاطمية في حالة نزع و تحتاج الى «دعوة جديدة» و طريقة جديدة. و قد أبدعت هذه الدعوة و هذه الطريقة الجديدة نابغة ثوري باسم حسن الصباح[١٢]».

و قد حدث في تلك الفترة و حتى في العقد الذي قبلها ضعف و اضطراب في اركان الخلافة جعل من الصعب عليها مواجهة الصليبيين مباشرة في الخارج. ففي هذه الفترة تعرضت الشريعة و النظام السياسي القائم عليها و المتمثل بالخلافة إلى خطر داهم من قبل الصليبيين، فقد أثبت الخلافة عملياً أنها لا تستطيع مواجهة ذلك الخطر الداهم نتيجة للفساد و التدهور الذي يسيطر عليها، و كان عليها الدفاع عن الملكية و تقويتها لايجاد سد في وجه الصليبيين. و من ناحية أخرى فقد مضى وقت طويل لا تستطيع الخلافة فيه مواجهة العدو الداخلي أيضاً؛ و حتى أصبح من غير الممكن احياء و تجديد حياتها[١٣]. و ربما وصل الغزالي إلى هذه النتيجة لاطلاعه على وضع الخلافة و السلطنة فشمر عن ساعد الجد للعمل على دعم الحكم من الناحيتين العملية و السياسية، بدون نفي شرعية الخلافة و ذلك باعتماده على الواقع السياسي. و الشرح الذي أورده الغزالي و اكثر السياسيين آنذاك عن العلاقة بين الدين و الدولة ينبئ عن أنهم اعتبروا نجاة الملك و الملكة مقدماً على نجاة الشريعة؛ ذلك أنه رغم كون الدين و الدولة توأمين، غير أنهم لايمكن بقاء الدين بلا دولة.

إن مثل هذا التفسير للواقع ليس تحليلاً نظرياً للحوادث والوقائع التي وصل اليها الغزالي فقط بل كان عملياً، ضعف الخلافة و انهيارها الذي يشتهر بين العام و الخاص. يقول المستشرق الروسي «بارتولد» الذي قام بدراسة دقيقة للعلاقة بين الخليفة و الحاكم: «ليس هناك مايشير الى أمل المجتمع في ذلك العصر بالعباسيين و اعتماد عليهم لتخليصه من نير حكام الشيعة و اعادة الوحدة الى المسلمين [السنة] تحت لوائهم و يبدو أن أنظار المؤمنين كانت لاتتجه نحو بغداد بل إلى المناطق الغربية من ايران حيث كان الساميون و من

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

بعدهم الغزنويون ثم المحتلون الاتراك الايلخانيون والسلاجقة الذين كانوا يرفعون خلافاً للبويهيين الحاكمين ببغداد، راية السنة عالياً، و دعوا إلى اتحاد الدين والدولة تحت لواء الحكام الدنيويين في الاسلام. وكان هؤلاء الحكام مستقلين عملياً ولكنهم يعتبرون أنفسهم أتباعاً أوفياء للخليفة الذي يقتدي به جميع المسلمين[١٤]».

و لم يكن مثل هذا الاستنباط لسلطة الخلفاء ـ رغم شرعيتهم ـ بين العامة فقط، بل كان في بلاط الملوك أيضاً. ذلك أنّ الملوك و إن كانوا يعرفون مورد شرعيتهم السياسية جيداً و لا يبادرون إلى انكاره، غير أنهم يعتقدون أنّ قدرة الملكية هي المحافظ و الحارس الوحيد للخلافة، و ربما كان الاعتقاد بقوة اساس شرعية الخلافة الذى لايتزعزع نظرياً، و الاعتقاد بضعفه عملياً توأمين. يقول ب. لويس عن درك الحكام السلاجقة لسلطة الخلافة: «كان الفاتحون الترك يشعرون بأن من واجبهم خدمة الاسلام، و أنّ عليهم أن يدافعوا عن الخلافة و أرباب دنيا الاسلام و المحافظة عليها ضد الأخطار الداخلية و الخارجية باعتبارهم المدافعين الجدد عنها. و قد أدوا واجبهم هذا على أحسن وجه، فوفر الحكام الاتراك وجيوشهم السلطة و القدرة السياسية والعسكرية الضرورية لمقاومة و ردّ الخطرين الكبيرين الذين كانا يهدّ دان عالم السنة، اي قتالهم للخلفاء الاسماعيليين، و من ثم الصليبيين الأوربيين المهاجمين..[١٥]».

و اكبر الظن أن أباحامد محمد الغزالي انهى فترة عزلته باعتماده على مثل هذا التحليل للأوضاع، و مثل هذا الاستنباط لسلطة الخلافة السياسة و قدرتها و السعي إلى هداية الخلق و اصلاحهم. و من البديهي أن لعزلة الغزالي أسباباً سياسية أيضاً. و ما يمكن الاستنباط من «المنقذ من الضلال» أن تركه للعزلة لايخلو من أسباب سياسية. و نحن نعلم أنّ الغزالى كان يهتمّ في هذا الكتاب كغيره من كتاباه باشتداد دعاية الباطنيين، و قد أشار الى الأخطار التي كانوا يستطيعون توجيهها إلى حدود السياسة العملية. يقول الغزالي بصراحة «أنه أصيب بوخز في الضمير لترخصه بالعزلة، و هو يدرك أكثر من غيره دقائق و مشاكل دعاية الفلاسفة، و بادر إلى الترديد في نفسه. فماذا تعنيك الخلوة و العزلة و قد عم الداء و مرض الأطباء و أشرف الخلق على الهلاك»[١٦].

على أن الغزالي رغم ايمانه الذي لايتطرق إليه الشك بأن هذه الأوضاع المضطربة و سوء العصر قد جاوز الحد، و ابتلي الناس بضعف الايمان و انه وحده المطلع على الداء و الدواء، فقد بادر الى التفكير و قال: «ثم قلت في نفسي متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة و مصادمة هذه الظلمة و الزمان زمان الفترة و الدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق لعاذك أهل الزمان في جمعهم و أنى تقاومهم فكيف تعايشهم؟ و لايتم ذلك الاظروف مساعدة و سلطان متدين قاهر فترخصت بيني و بين الله تعالى بالاستمرار على العزلة و تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة، فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لابتحريك من خارج، فأمر أمر الزام بالنهوض إلى نيشابور لتدارك هذه الفتنة؛ و بلغ الإلزام حداً كان ينتهي لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف فلاينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة و طلب عزّ النفس وصونها عن أذى الخلق ولم ترخص نفسك لعسر مقاساة الخلق؟»[١٧]

و يمكن الاستنباط ممّا مر أن الغزالي كان يرى أن ترك العزلة و الاقدام على الاحياء يتعلق بظهور ملك يطمئن لدعمه؛ و يبدو أنّ الإمام محمد الغزالي شاهد في ناصية السلطان الأمل فيه بأنّ الزمن أصبح ملائماً لتجديد أسوار السنّة الدينية، هو اقتران نجم سعده بنجم سعد ملك عادل، «فشاورت في ذلك (أي ترك الزاوية) جماعة من أرباب القلوب و المشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، و الخروج من الزاوية، و انضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير و رشد قدرها الله ـ سبحانه ـ على رأس هذه المائة، و قد وعد الله ـ سبحانه ـ باحياء دينه على رأس كل مائة [١٨]». و اكبر

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الظنّ أن موت بركيارق في ٤٩٨ هـ كان ذا أثر في العودة إلى الحياة النشيطة، و اقترن الانقلاب الباطني عند الغزالي مع تطورات الأوضاع الخارجية[١٩]. و أهله ذلك لقيادة احياء الدين على رأس مائة جديدة.

و يمكن أن نقف من الشرح المختصر المذكور آنفا على أهمية السياسة في عصر الغزالي، و الدور الذي لعبته في تطوره الفكري. و تدل هذه الملاحظات النظرية و التاريخية على أن الغزالي أهل العمل، و العالم السياسي كان لا يستطيع البقاء على هامش الحياة السياسية و الاجتماعية في عهده، و لذلك مارس قضايا زمانه و عهده بالفكر و العمل. و بالنظر إلى ذلك لا يمكن الشك في أن الغزالي بادر ـ بناء على طلب من الملك السلجوقي ـ إلى تأليف نصيحة الملوك في أواخر حياته و أثناء كتابته المنقذ من الضلال، و بيان عودته الى النشاط و ترك الزاوية؛ و بعد أن أورد مقدمة في بيان الاحكام و النصائح الشرعية كلم السلطان على قدر دركه كما بدأ الكلام في المستظهري بلغة الخليفة بقوله «كلّم الناس على قدر عقولهم».

فإذا كان نصيحة الملوك ـ كما قيل ـ أثر فريد فيما كتب الغزالي، يمكن القول أنّ هذا الأثر الفريد يؤيد القاعدة و لا يعتدى المنطق الباطني لتطور الفكر السياسي عند الغزالي وحذة لا يُخل فيها تنوع الآثار و اختلاف البيان و التعبير، غير أن هذه الوحدة التي هي وحدة المنطق و الانسجام الباطني لآراء الغزالي ليست ممكنه عن طريق «التحقيقات الأدبية» و الاهتمام بالظاهر[٢٠]. و بناء على مامر من ملاحظات، و بالنظر إلى النتائج التي حصلنا عليها من تلك الملاحظات، سنسعى إلى بيان استمرار وحدة الفكر عند الغزالي في مواجهة السلة السياسية بالنظر إلى بعض الفقرات التي تبدو في الظاهر متعارضة في كتاباته المختلفة.

إن أساس النظرية السياسية عند الغزالي تقوم على أنّ حياة الانسان مجموعة في الدين و الدنيا، و لا نظام للدين الا بنظام الدنيا، يقول الغزالي في كتاب فاتحة العلوم: «إنّ مقاصد الخلق مجموعة في الدين و الدنيا و لا نظام للدين الا بنظام الدنيا، فإنّ الدنيا مزرعة الآخرة، و هي الآلة الموصلة إلى الله تعالى، لمن اتخذها آلة ولم يتخذها وطناً و مستقراً، و ليس ينتظم امرالدنيا الا بأعمال الآدميين..»[٢١] إنّ هذا التعارض بين الدين و الدنيا و السعي لحلّه، هو أساس الفكر السياسي عند الغزالي و المحور الأصلي لنظراته في السياسة. ثم إنّ وجود هذين القطبين المتعارضين و تأرجح الغزالي العالم السني بينهما بانظر الى التطور في الحوادث السياسية، هو السبب لوجود الخط البياني لتطور الفكر السياسي عند الغزالي.

و الفرق الأساس بين كتب السياسية و مانسميه كتب الشرعية [٢٢] أن كتب السياسة تجعل الدنيا و العلاقات الدنيوية عامة أساساً لشرح المسائل السياسية، و تعتبر الدين أحد العوامل التي يقوم عليها المجتمع الانساني. اما في كتب الشرعية فبالعكس لا أهمية للدنيا إلا باعتبارها مزرعة الآخرة، و لهذه النقطة التي نشير اليها إشارة عابرة آثار و نتائج مهمة في شرح المسائل السياسية. و يبدو أن الغزالي أراد أن يعرض لناحلاً ثالثاً بالاضافة إلى هذين الحلين؛ و لذلك فإنه ينظر في معنى الدنيا و يرى وجود مراتب للسياسة، يقول الغزالي حول معنى الدنيا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد: «فإن قيل لم قلتم أنّ نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، بل لا يحصل إلا بنظام الدنيا، بل لا يحصل إلا بخراب الدنيا، فإن الدين و الدنيا ضدان، و الاشتغال بعمارة احدهما خراب للآخر. قلنا هذا كلام من لا يفهم مانريده بالدنيا الآن، فإنه لفظ مشترك قد يطلق على فضول التنعم و التلذذ و الزيادة على الحاجة و الضرورة، و قد يطلق على جميع ماهو محتاج اليه قبل الموت، و أحدهما ضد الدين، و الآخر شرطه؛ و هكذا يغلط من لا يميز بين معاني الألفاظ المشتركة، فنقول نظام الدين بالمعرفة و العبادة لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن و بقاء الحياة و سلامة قدر الحاجات من الكسوة و المسكن و الأقوات و الأمن من سائر الآفات؛ و لعمري من أصبح آمنا في سربه، معافى بدنه، و له قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها؛ و ليس يأمن الانسان على روحه و بدنه و ماله و مسكنه و قوته في جميع

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الأحوال بل في بعضها، فلا ينتظم الدين الأمن على هذه المهمات الضرورية، و إلا فمن كان جميع اوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، و طلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم و العمل، و هما وسيلتاه إلى سعاده الآخرة، فإذن بان نظام الدنيا، أعني أن مقادير الحاجة شرط لنظام الدين[٢٣]».

و يبادر الغزالي إلى تعريف السياسة و أنواعها معتمداً على مثل هذه العلاقة بين الدين و الدنيا، و يورد ضمن بيانه لمراتب السياسة فرقاً أساسياً بين السياسة المثالية و الواقعية، يقول في فاتحة العلوم في بيان معنى المراتب السياسية مع تأكيده على أهمية تنظيم الأمور الدنيوية و توفير أسبابها: «و أعني بالسياسة استصلاح الخلق بارشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا و الآخرة، و هي على أربع مراتب: الأولى و هي العليا: سياسة الانبياء و حكمهم على الخاصة و العامة جميعاً في ظاهرهم و باطنهم. الثانية: سياسة الخلفاء و الملوك و السلاطين و حكمهم على الخاصة و العامة جميعاً، لكن على ظاهرهم، لاعلى باطنهم. و الثالثة: سياسة العلماء بالله و بدينه الذين هم ورثة الأنبياء، و حكمهم على بساطن الخاصة فقط، و لا يرتفع فهم العامة إلى الاستفادة منهم، و لا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظاهرهم بالالزام و المنع. و الرابعة: الوعاظ، و حكمهم على بواطن العامة فقط؛ و أشرف هذه المقامات بعد النبوة افادة العلم و تهذيب نفوس الناس من الأخلاق المذمومة المهلكه، و ارشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعودة و هو المراد بالتعليم[٢٤]».

و على الرغم من أن الغزالي يعتبر سياسة العلماء أشرف سياسة بعد سياسة الأنبياء؛ لكن يتبين مع يسير من الدقة أنّ السياسة الوحيدة التي يمكن أن تعمل على التنظيم الواقعي للأمور بعد ختم دائرة النبوة، هي سياسة الخلفاء و الملوك و السلاطين الذين جعلهم الغزالي في مستوى واحد و ليست سياسة العلماء بالله و بدينه الذين هم ورثة الأنبياء؛ و ذلك لأن حكمهم على باطن الخاصة من جهة، و لا تنتهي قوتهم إلى التصرف في الظاهر بالالزام و المنع؛ و بعبارة أخرى فإن سياستهم هي السياسة الفاضلة على الخاصة و ليست سياسة الغلبة على عموم الناس. و من الطبيعي أنّ نظام الأمور الدنيوية لا يستتبّ إلاّ بسيف الخليفة و السلطان المطاع؛ و على هذا فإن السياسة الفاضلة للانبياء و ورثتهم هي جلاء صدأ الأخلاق السيئة و المذمومة من النفوس و الأرواح. و ليس لهذه السياسة صلة بـ «الغلبة»، فإذا لم تكن السياسة الفاضلة ممكنة الاّ في حدود باطن الخاصة، فإنّ الواقع السياسي يحكم ألاّ يكون فرق بين الخليفة ـ أو الإمام كما يقول الغزالي و مراده الإمام المطاع ـ و بين السلطان. هذا رغم أن الواقع التاريخي لايتفق مع الالزمات النظرية.

و الغزالي يستعمل الخلافة و السلطنة و كذلك الإمام المطاع بمعنى واحد في البحث السياسي فيقول: «إنّ نظام الدين لايحصل إلا بامام مطاع[٢٥]». ذلك لـ «أن نظام الدين لايحصل إلا بنظام الدنيا، و نظام الدنيا لايحصل إلا بإمام مطاع»؛ و يقول في هذا الموضع و قليلاً بعده في شرح الموضوع: «إنّ الدنيا و الأمن على النفس و الأموال لاتنتظم إلاّ بسلطان مطاع، فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلطان و الأئمة، و أنّ ذلك لودام و لم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع، دام الهرج و عمّ السيف و شمل القحط و هلك المواشي و بطلت الصناعات؛ و كان كل من غلب سلب، و لم يتفرغ أحد للعبادة و العلم إن بقي حياً، و الأكثرون يهلكون تحت ظلام السيوف. و لهذا قيل الدين و السلطان توأمان، و لهذا قيل الدين أس و السلطان حارس، و ما لاأس له فهدوم، و ما لا حارس له فضائع. و على الجملة لا يتمارى العاقل في أنّ الخلق على اختلاف طبقاتهم و ما هم عليه من تشتت الأهواء و تباين الآراء، لو تركوا و شأنهم و لم يكن لهم رأي مطاع يجمع شتاتهم لهلكوا من عند آخرهم. و هذا داء لاعلاج له إلا بسلطان قاهر مطاع يجمع شتات الآراء، فبان أن السلطان ضروري في نظام الدنيا، و نظام الدنيا ضروري في نظام الدين، و نظام الدين ضروري في الفوز بسعادة الآخرة و هو مقصود الانبياء قطعا؛ فكان وجوب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل إلى تركه، فاعلم ذلك[٢٦]».

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

والحقيقة أن الغزالي مهّد طريق العبور بمثل هذا الاستدلال من احياء علوم الدين و سياسته الفاضلة الي المستظهري و نصيحة الملوك. و لذلك لايمكن الشك في استمرار فكره السياسي رغم التنوع في اسلوب البيان والكلام. و قبل أن بنادر إلى بيان هذه الموضوع نجد من الضروري ايراد بعض الملاحظات الأخرى اضافة إلى ما ذكرناه آنفاً.

ينبغي عدم تصور أنّ الغزالي بتأكيده على سياسة الخليفة والسلطان، كفّ يد علماء الدين عن السلطة السياسية. فالدنيا منزل من منازل الآخرة، ولا يمكن معرفة طريق السعادة الاخروية والوصول إليه إلا في ضوء الدين. و يحتاج السلطان ـ الذي لا يعرف الطريق ـ إلى مرشد و يكون للدين ـ الذي لا يستقيم الا عن طريق نظام الأمور الدنيوية ـ حامٍ قوي. «فالفقيه هو العالم بقانون السياسة و طريق التوسط بين الخلق، إلى طريق سياسة الخلق لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا. و وجه تعلقه بالدين انّ الدنيا منزل من منازل الآخرة، بل هي مزرعة الآخرة، ولايتم الدين الا بالدنيا؛ و لذلك قيل الدين والملك توأمان، والدين أصل والسلطان حارس، و ما لاأصل له فمهدوم، و ما لاحارس له فضائع[٢٧]».

و يمكن ملاحظه استمرار هذا الفكر في كتاب المستظهري، و يحكم الغزالي ضمن ردّ عقائد الباطنية الدينية و نظرية الإمامة عند الشيعة بـ «وجود قدر مشروط لصحة الإمامة في الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين ثبت الله دولته ـ، و بالنظر الى شرعية الخليفة التي لاتنكر، يعتبره واجب الإطاعة، و انّ امامته على وفق الشرع؛ و انّه يجب على كل مفت من علماء الدهر أن يفتي على القطع بوجوب طاعته على الخلق و نفوذ أقضيته بالحق و بصحة توليته الولاة و تقليده للقضاء و صرف حقوق الله اليه ليصرفها إلى مصارفها، و يوجها إلى مظانها و مواقعها...[٢٨]».

و فلاحظ في هذه الفقرة بعض المسائل التي تبدو عجيبة و غير عادية إذا ما قورنت بالصورة التي في ذهننا عن الغزالي العالم المشروع، كما هو الحال في كثير من فقرات كتاب نصيحة الملوك التي تبدو عجيبة و غير عادية بالمقارنة مع كيمياى سعادت (كيمياء السعادة) و إحياء علوم الدين، فإذا كان الشك جائزاً في نسبة نصيحة الملوك الى الغزالي بناء على «الدراسات الأدبية»، فإن من المؤكد أنّ كتاب المستظهري له. يقول هنري لائوست الذي درس بدقة الفكر السياسي عند الغزالي و عمل خاصة على شرح سياسته الشرعية الفاضلة مشيراً إلى الفقرة السابقة: «يمكن القول في الجملة أنّ كتاب المستهزي يصل إلى نوع من الخلافة المطلقة التي شرح الماوردي أساسها في الأحكام السلطانية، والذي يبعث على العجب، تلك العبارات و الألفاظ الطاحفة بالمدح و الثناء التي استعملها الغزالي في مدح المستظهر و التمجيد بخصاله. والانسان يسأل نفسه هل كاتب هذه العبارات هو الغزالي المعتزل الذي رغب عن الدنيا و مافيها؟ و نظراً للتملقات التي وردت في المستظهري يتبادر إلى الذهن أنّ كاتبها رجل بلاط عجول أكثر منه رجل اخلاق أو فقيه مشرع. و مع كل هذا ينبغي ألاّ يغيب عن البال أنّ الغزالي كان يتمتع اثناء تأليفه للمستظهري باعتماد الخليفة الكامل، و قد عقد الآمال عليه لاصلاح الدولة[٢٩]».

لا شك في صحة ماورد من توضيح حول اعتماد الخليفة الكامل على الغزالي، اما فيما يتعلق بأمل الغزالي في اصلاح الخليفة للدولة فقيه نظر. فما هي القرائن والإشارات التي كانت تبعث الأمل في نفس الغزالي باصلاح المستظهر بالله للدولة و اي اصلاح كان ينتظر في داخل الخلافة؟ فنحن نرى أن كلام لائوست ليس أكثر من ايضاح، لأن الغزالي أشار في المنقذ من الضلال[٣٠] إلى أمثاله. و كذلك يمكن الحدس بالنظر إلى ما قيل في الخط البياني للفكر السياسي عند الغزالي و واقعيته، أنّ الغزالي كان يهتم بالتقرب من الخلافة أكثر مما يأمل في اصلاحها؛ و قد أدى الخطر الذي يهدد الخلافة من الداخل إلى أن يزداد هذا التقرب عمقاً و سرعةً.

لقد أصبح الفكر السياسي عند الغزالي أكثر عمقاً في بعض النواحي بالنظر الى ماواجه مدرس نظامية بغداد السابق من تجارب سياسية و فشل وخيبة أمل؛ و ذلك رغم استمراره و

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

ارتباطه المنطقي، فقد بادر الغزالي مع مرور الزمن إلى النظر في طبيعة و ماهية العهد المتلاطم الذي يعيش فيه، و سعى إلى شرح الأزمة المحيطة التي تهدّد أركان الخلافة و المجتمع بالانهيار. و مما لاشك فيه أن الغزالي لم يغرق خلافاً لكثير من مشاهير تاريخ الفكر بايران و هو في خلوة الزاوية في اعماق نفسه، ولم يأبه للأمور السياسية و الاجتماعية. فقد اشتبك حجة الاسلام و مدرّس نظامية بغداد مع جميع وقائع و شخصيات زمانه و ترك بصحته على جبين جميع التيارات السياسية. فلم يكن الغزالي عالماً يعيش على هامش الوقائع و الحوادث السياسية و التاريخية، بل كان أهل عمل في مركز الاتحادات و الانشعابات، و كان فكره السياسي متغير بحيث هو الذي يؤثر في منطق تعبر الحوادث و التيارات السياسية و التاريخية.

إن أهم القضايا المهمة في دراسة و رسم الخط البياني لتطور الفكر السياسي عند الغزالي بالمقارنه مع التيار الرئيسي لتاريخ الفكر السياسي بايران، أن الغزالي استطاع خلافاً لكثير من كبار رجال الفكر الايرانيين أن يدوّن سياسته الفاضلة ايضاً على أساس الواقعيات الاجتماعية و السياسية. و لذلك لم تكن تكراراً كاملاً للآراء و الافكار السياسية المنتشرة آنذاك، و إن كان قد تأثريها تأثراً عميقاً؛ و قد أدى اهتمام الغزالي في النهاية بالحوادث السياسية و التاريخية إلى تقييمها تقييماً واقعياً. و لعلّ تقييم الغزالي التشاؤمي لأوضاع زمانه و حتى أن تخطيطه لنظرية الانحطاط العامة التي يمكن أن نجد عناصرها في كتاباته، قد وجه قاسمة و مهلكة لاعتقاده بسياسة فاضلة.

و الأهمية الكبرى في تفسير تطور الفكر السياسي عند الغزالي من السياسة الفاضلة إلى الواقعية، ادراكه للتغيير الأساسي في طبيعة زمانه و ماهيته. و الغزالي بالجملة عالم متشائم، و هذا التشاؤم لايتفق في كثير من المواضع مع كونه مشرعاً. و قد روى عن حاتم الأثم في نصيحة الملوك أنه سئل «لماذا لانجد ماوجد السلف؟ قال: لأنّنا لا نملك خمسة أشياء: الأول: الاستاذ الناصح، و الثاني: الصديق الموافق، و الثالث: الجهد الدائم، و الرابع: الكسب الحلال، و الخامس: الزمان الملائم[٣١]». فالزمان غير الملائم جعل من غير الممكن تنفيذ السياسة الهادفة و الحكومة الفاضلة؛ و يرى الغزالي الذي يهتم بدور ازدواجية الملك و الدين، أنّ سبب عدم تلاؤم الزمان و ضياعه يكمن في أمرين: الأول انّ العلماء فسدوا، و ادخلوا سمّ هذا الفساد في أركان الدولة و المجتمع؛ كما قال الرسول: «كان الخلق في أول الزمن نائمين و العلماء صاحين؛ و العلماء اليوم نائمون و الخلق ميتون؛ فما فائدة كلام النائم للميت». و هذا كان في العصر الذي فسد فيه رأي الخلائق، وساء عمل الناس و نيتهم. ومالم يكن الخوف و سياسة السلطان و الملك، فلاصاعة للخلق و لاصلاح[٣٢]».

و يمكن بالنظر إلى التطور الأساسي في أوضاع الزمن و طبيعته و ماهيته بيان الكثير من التطورات السياسية و التاريخية الأخرى، و يستنتج الغزالي من عدم امكانية السياسة الفاضلة و الحكومة الفاضلة، أنّ هذا التطور الأساسي سيتبعه تغييرات مهمة، منها فساد الرعية الذين يشكلون المادة الأولية للسياسة الفاضلة. و يطول حديث الغزالي حول ذلك يلخص كلامه بقوله: «و مقصودنا الذي يتضمن الكثير أنّ عصرنا شديد الخلاف و الناس عنه غافلون، و السلاطين بالدنيا مشغولون و بالمال مغرمون، و لا يصح التغافل عن الناس؛ فقد قيل في المثل الغربي: العبدُ يقرع بالعصا و الحرّ تكفيه الاشارة. و قد كان زمن و عصر ينشر الأمن في جميع العالم رجل واحد، و يسخره بدرة يحملها بيده، يعنى اميرالمؤمنين عمر الخطاب ـ رضى الله عنه ـ، و لذلك فن ذلك الوقت و فن سياسة للرعيّة. و اليوم إنّ سيست الرعية تلك السياسة قد استشرى الفساد، و لكن ينبغي أن يكون للملك هيبة و سياسة ليقوم كلٌّ بعمله و يأمن الخلق بعضهم بعضا[٣٣]».

و يلحض الغزالي رأيه في تغيّر هذا الزمن بهذه الجملة: «كان الدين في عهد نبينا ـ عليه الصلاة و السلام ـ مطلوباً، و اليوم تطلب الدنيا[٣٤]». ففساد العلماء يمكن أن يبين سيطرة حب الدنيا باعتباره طبيعة هذه الفترة و ماهيتها. اما المسألة

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الثانية التي أشار إليها الغزالي أنّ حب الدنيا أدى إلى وضع خطير لايحتملُ و خطير، و هو ابتعاد جماهير الناس عن الخلافة و توجههم إلى دعاية الاسماعيليين. و يرى الغزالي في غاية التشاؤم أنّ هذا الوضع أصل كل المساوئ، كما يرى جماهير الناس تبلور لجميع المفاسد أيضاً. ذلك أنّ أساس التحليل السياسي عند الغزالي يقوم على أنّ الخليفة و السلطان أساس السلطة السياسية، كما تسمع في الأخبار: «السلطان ظل الله في الأرض[٣٥]». و السلطان الذي هو ظل الله و نائبه لا يمكن أن يكون موضع صدور الشرّ؛ بينما على العكس أساس و قوام الرعيّة على الفساد و الشر. «و اليوم كل مايفعله و يقوله الأمراء منّا، و اذا ساء عملنا و خنّا و كذبنا و لم نحفظ الأمن، كانوا ظالمين جائرين أيضاً، و كما تكونونه يولّى عليكم». تمعن في هذا الكلام أنّ عمل الخلق من عمل الملوك، و إذا وصف بلد بالعمران و أهله بالراحة و الاطمئنان و أنهم من ملكهم ناعمون، فاعلم أن هذا الخير من نية الملك و ليس من الرعية، و هذا يؤيد ما قال الحكما: «الناس بملوكهم أشبه منهم بزمانهم»؛ و قيل أيضاً: «الناس على دين ملوكهم[٣٦]».

و لا يتوقف الغزالي عن تكرار هذا الكلام، و هو أنّ طبيعة الزمان و هيئته قد تغيّرا، و الرعية بلاخجل ولا أدب و لا رحمة يكنون لتعريض النظام الاجتماعي و النظام السياسي إلى الخطر بالاستفادة من ضعف السلطان؛ وقد وصل الغزالي من تقييمه لماهية زمانه و طبيعته إلى أنه ينبغي الانتخاب بين جور السلطان و خراب العالم. و من الطبيعي أنه يفضل ذاك على هذا؛ فمن الواجب أن يحكم الملك و أن يكون ذاسياسة، لأن السلطان خليفة الله، و ينبغي أن يكون من الهيبة إلى حد لا يستطيع الرعية القيام إن رأوه من بعيد؛ أسّ أساس الملك، و خير الملك و بركته و عمرانه ينبع من عدل الملك، و عمل الخلق متصل بعمل سلطانهم: «حكي انّ النبي سليمان ـ عليه السلام ـ كان يجلس على العرش، فحملته الريح؛ نظر سليمان في تعجب إلى تحته، و أمر جنّياً و غولاً و الطيور و الخلائق و الكبار و الهيبة و السياسة أن يستقيم عرشه. قال: إستقم يا عرش، فصاع العرش: إستقم أنت لنستقم؛ كما قال الله تعالى: إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم[٣٨]».

إنّ ماورد في تطور الفكر السياسي عند الغزالي لايعني تأييداً لكلام ابن رشد، الذي اتهم خصمه بضعف العقيدة و انحراف الفكر. فنحن نعتقد بأن للغزالي مكانة و منزلة ساميتين في تاريخ الفكر السياسي بايران، شأنه يعتبر من اوائل علماء العصر الاسلامي في ايران، في ادراكه العميق لمنطق السلطة السياسية على أساس الشرح الذكي لوضع الزمن و ماهية العصر و نحن بتقييمنا الصحيح لتطور الفكر السياسي عند الغزالي لا نتمكّن من رسم خط بياني لتطور الفكر الساسي عند الغزلي فقط، بل من رسم خط بياني لتطور الفكر السياسي في ايران في العهد القديم. و لا يعتبر الغزالي العالم الوحيد الذي أعرض عن المثالية إلى الواقعية السياسية؛ ففكثير من الفلاسفة و العرفاء و أهل الدين كل سلك بدوره طريقاً كان قد مهّده الغزالي بمساعيه؛ فبابا أهفضل الكاشاني و نجم الدين الرازي صاحب مرصاد العباد و الامام فخر الرازي كانوا في زمرة الذين يمكن أن يدرس فكرهم السياسي في ضوء الدراسة الصحيحة لتطور الفكر السياسي عند الغزالي، و بيان المنطق الوحيد الباطني لتطور الواقعية السياسية و استمرارها في ايران.

المصادر و الهوامش

١ ـ ان وضع اكثر الشعراء و لاسيما الذين ينظمون القصيد متساوون تجاه السلطة، و لا يحتاج ذلك لتأكيد مجدد، كما كان كثير من أهل الدين و الفلاسفة في خدمة السلاطين، و قد قدموا أفضل آثارهم بأسمائهم.

٢ ـ لبيان حالة من الشك في صدق الغزالي يمكن مراجعة.

J. M. Abd-El-Jalil. "Autour de la sincerite" d'Al-GAZZâLî" IN mélanges Louis Massignin. Institut de Samas, 1956, T. I. p. 57. 72

و لبيان السبب السياسي لهذا الشك في صدق الغزالي يمكن

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الرجوع إلى رأي بطروشفسكي: «و معهذا فقد شك بعضهم في حياته في طرق هذا التغيير في العقيدة، و يُظن أن كفّ يده من العالم و الفرار من بغداد ربما كان لأسباب سياسية؛ ذلك أنه قبل فراره عام ٤٨٨ هـ عزل السلطان السلجوقي بركيارق عمّه تُتُش الذي كان ينافسه على الحكم و قتله، و قبل هذه الحادثة كان الخليفة المستظهر يدافع عن تُتُش، و لذلك فإن الغزالي الذي كان له منزلة كبيرة بين حاشية الخليفة و كان مستشاراً له ربما خاف من انتقام بركيارق. و قد قيل أنّ عودة الغزالي الى بغداد كانت بُعيد موت السلطان بركيارق عام ٤٨٩ هـ ايليا پاولوتيش بطروشفسكي. اسلام در ايران، ترجمهٔ كريم كشاورز، پيام تهران، ١٣٥٤ هـ ش، ص ٢٣٧.

و يقول هنري لائوست: إن قتل نظام الملك حرم الغزاليَ من مدافع قوي، و حينما دخل بركيارق بغداد عام ٤٨٨ هـ ترك الغزالي الذي كان يزعم محمد بن ملكشاه عند الخليفة بدلاً منه ـ التدريس. و هذا التصميم على ترك التدريسي الذي تجلى في المنقذ من الضلال بشكل أزمة نفسية و اضطراب باطني و قصد الاعراض على الاعمال الرسمية يمكن أن يكون تصميم رجل كان من أهل المصالحة و المداراة. و قد عاد الغزالي إلى التدريس في النظامية سنة ٤٩٩ هـ بعد موت بركيارق عام ٤٩٨ هـ و في عهد صدارة فخر الملك وزير السلطان سنجر. و بعد سنة فتك الباطنيون الملك بطعنة خنجر. و بعد ثلاث سنوات من ذلك اعتزل الغزالي في طوس و مات في نفس السنة ٥٠٥ هـ.

H. Laou st, les schîsmes dans l'Islam, payot, Paris, 1977, p. 202.

٣ ـ يرجع من أجل ذلك إلى مجموعه سائل الغزالي إلى ايران و الوزراء المعاصرين: فضائل الأنام من رسائل حجة الاسلام. تصحيح عباس اقبال، ابن سينا، تهران، ١٣٣٢ هـ ش. و نورد فيما يلي كنموذج فقرة يشبه مضمونها تماماً مضمون نصيحة الملوك، لاتدع شكاً في نسبة هذه الكتابة للغزالي: «أيها الأمراء القائمون على الدولة الجديدة، إن أردتم أن تستمر الدولة و تكون مباركة، لابد أن تميزوا بين الدولة و عدمها و تعلموا بأنه ليس لكم ملك واحد، بل اثنان: الأول ملك خراسان و الثاني ملك السماء و الأرض، و الذي ملكه مكلكم. و غداً يوم القيامة تقفون أمامه للحساب، فيقال لكم: كيف أديتم حق النعمة، و قلوب الملوك خزائن الله تعالى؛ لأن كل ما يستحدثه في عالم التراب من الرحمة و العقوبة، هو بواسطه قلوب الملوك. و يقول: قد سلمت خزانة قلبي اليكم، و جعلت لسانكم مفتاح تلك الخزانة، فهل أديتم أمانة الخزانة أو ختتم الأمانة؟ فكل من حجب عن الملك حال مظلوم خان الخزانة، فأصغوا. و اعتبروا إنّ هذه الدولة فانية، و خجل الخيانة في الأمانه باق». فضائل الانام، ص ٩-١٠.

٤ ـ سيد جواد طباطبائی. مقدمهٔ تاريخ فكر سياسی در ايران، المعارف، دورهٔ دوم، شمارهٔ ٢، تهران، ١٣٦٤ هـ ش، ص ٧٩ـ١٠٢. و قد اهتم المرحوم حميد عنايت بموضوع كتب السياسة في ايران في العصر الاسلامي، و أشار اشارة عابرة إلى هذه المشكلة دون أن يستطيع بيان أبعاد الموضوع الواسعة و شرحها. و يجب ألاّ يغيب عن البال أنّ كتاب المرحوم عنايت يدور بصورة عامة ـ ولو لم يكن منحصراً ـ بالفكر السياسي في الاسلام المعاصر، و يتحدث عن المسائل المتعلقة بالقديم كمقدمة للموضوع:

«... يوجد جانب من الفكر السياسي عند المسلمين يعكس كلياً صورة متغيرة للصلة بين الحاكمين و المحكومين، و ينبغي الحديث عنها؛ و هذه الصورة تتجلى في نوع من المتن يعرف بنصيحة الملوك دوّن بقلم نوابغ كالغزالي و الخواجه نصير الطوسي و سياسيين أمثال نظام الملك، يعرض فيها نظرية تتعلق بالمَلَكية يبدو فيها بوضوح تأثير العقائد و الآراء عند الايرانيين قبل الاسلام فيما يتعلق بالحكم و إن كانت قد برت بشكل اسلامي مناسب. و يمكن مشاهدة نماذج من هذا التعريف حتي في آثار فقهاء يدافعون عن الاستبداد باعتباره أقل شراً بمارنته مع الهرج و المرج و قد أكّد هنا على العدالة باعتبارها شرطاً ضرورياً للحكم، و على عواقب الظلم الوخيمة و العمل في سبيل الدين و رفاهية الناس باعتبارهما العامل الوحيد لشرعية الاستفادة الاستثنائية من الاستبداد». حميد عنايت. انديشهٔ سياسی در اسلام معاصر، ترجمهٔ بهاء الدين خرمشاهی، انتشارات خوارزمی، تهران، ١٣٦٢ هـ ش، ص ٣٥-٣٦.

٥ ـ يرجع إلى:

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

H. Laoust, La politiguede Ghazali, p. Geuthner, Paris, 1970.

و ترجمته الفارسية بعنوان: هانری لائوست. سیاست و غـزالی، ترجمهٔ مهدی مظفری، انتشارات بنیاد فرهنک ایـران، تهـران، ۱۳۵٤ هـ ش، ۲ جلد.

٦ ـ ابن رشد. فصل المقال في مابين الحكمة و الشريعة. ترجمهٔ سید جعفر سجادی، انجمن فلسفهٔ ایران، تهـران، ۳۵۸ هـ ش، ص ٦٨: الغزالي «يبدو أنه اشعري مع الأشـفري و صـوفي مـع الصوفي و فيلسوف مع الفلاسفة. كما قيل في المثل:

يـوما يمـان إذا لقـيت ذا يمـن و إن لقـيت مـعديا فـعدنان

٧ ـ برنارد لويس. فدائيان اسماعيلی، ترجمهٔ فریدون بدره‌ای، انتشارات بنیاد فرهنگ ایران، تهران، ۱۳٤۸ هـ ش، ص ۱۹۳.

٨ ـ ابوحامد الغزالي، المنقذ من الضلال، طبع مكتبة الجندي، ص ۳٤.

إن فتوى الغزالي حول الشيعة الاسماعيليين عجيبة و قاطعة «فمن الواجب العلم بأن هؤلاء القدم (اي الإباحية و الزنـادقة) أسـوأ الخلق، و أردا الأمة. و علاجهم مأيوس منه، و لا فائدة لنصحهم و لا مناظرتهم. و إن الواجب قمعهم و استئصالهم و اراقة دمائهم، و لا سبيل لاصلاحهم إلا هـذا «يـفعل الله بـالسيف و السـنان ما لايفعل بالبرهان». فضائل الأنام من رسـائل حجة الاسـلام، ص ۸۷ ـ ۸۸.

نص فتوى أخرى نشرها الاستاذ محمد تقی دانش پژوه في مجلة كلية الآداب بتبريز (عام ۱۳٤٤/۱۷ هـ ش ـ الرقم ۳):

اعلم أن قتلهم أحلّ من ماء المطر و أوجب، و عـلى السـلاطين و الملوك أن يقهروهم و يقتلوهم، و أن يطهرو وجه الأرض مـن نجاستهم و وجاستهم. و لا ينبغي مصادقتهم و مصاحبتهم، و يجب ألاّ تؤكل ذبائحهم و لا يجوز نكاحهم. و اراقة دم ملحد أولى من قتل سبعين كافراً روميـاً». نـقلاً عـن بـرنارد لويس. فـدائـيان اسماعيلی، ص ۷۲ ـ ۷۳.

«كان لايتجرأ أحل من قواد الجيش و الرؤسـاء أن يخرج من بيته دون محـافظ. كـانوا يـلبسون الدروع تحت البسـتهم، حـتى أنّ أبا الحسن، وزير السلطان بركيارق كان يلبس الدرع تحت لباسه، وقد طلب امراء بركيارق منه أن يحضروا بين يـديه بـاسلحتهم خوفاً من هجوم الاسماعيليين؛ و قد سمح السلطان لهم بـذلک». نقلاً عن ب. لويس. نفس المصدر، ص ۷۸.

۹ ـ ب. لويس. نفس المصدر، ص ٤٠.

۱۰ ـ نفس المصدر، ص ٤٥.

۱۱ ـ نفس المصدر، ص ٤۹.

۱۲ ـ نفس المصدر، ص ۵۵. و يرجع كذلك الى:

Hamid Emayat, "An outline of the Politieal philosophy of the Ikhwan al-Safâ" in Ismaili contribution to islamic. Edited by S. H. Nasr, Iranian Aeademy of philosophy. Tehran, 1977, p 23-49.

۱۳ ـ حتى في عهدالسلطان محمود كانت الخلافة ظاهرية، و كان السلطان محمود يستطيع فتح بغداد و يقضي على الخلافة؛ و لكن حفظ الخلافة كان حجة لقتل «القرامطة و الرافضة» الفجيع، و كان السلطان محمود يعتبر نفسه ممثلاً و عاملاً على تنفيذ نوايا الخليفة. و لا يمكن لمؤرخ أن يصل في وصف الجو العـام لبـلاط السلطان غازي إلى درجة شعراء البلاط، فنحن نجـد في اشـعار فرّخي السيستاني و عنصري التي مدحها فيها السلطان محـمود الغزنوي تمجيداً له لقتل القرامطة و ذكر فتوحاته و مذابحه. يرجع في ذلك إلى:

فرخي سيستاني ديوان، بكوشش محمد دبير سياقی، انـتشارات زوّار، تهران ۱۳۳۵ هـ ش، ص ۲۵۹ ـ ۲٦۰: الأبيات ۵۱۳۱ و ۵۱٤۳ ـ ۵۱٤۸؛ و كذلك ص ۲۲۱: الابـيات ٤٤۲۲ ـ ٤٤۲٤ و ابوالقاسم حسن بن أحمد عنصري. ديوان، تصحيح يحيى قريب، ابن سينا، تهران، ۱۳٤۱ ش، ص ۱۱۱.

۱٤ ـ و. و. بارتولد، خليفه و سلطان، ترجمهٔ سيروس ايزدی، انتشارات أميركبير، تهران ۱۳۵۸ هـ ش، ص ۲۲.

۱۵ ـ ب. لويس. نفس المصدر، ص ٤٨.

۱٦ ـ الغزالي المنقذ عن الضلال، ص ٦۲.

۱۷ ـ الغزالي، نفس المصدر، ص ۵۸.

۱۸ ـ تقارن مع الفقرة التي وردت في رسـائل الغزالي: «بعد اثنتى عشرة سنة من العزلة، الزمني فخر الملك ـ رحمة الله عليه ـ

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

أن آتي الى نيشابور، فقلت قد لايحتمل كلامي في هذا الزمان، فكل من يقول الحق في هذا الوقت تنهض لمعاداته السماء و الأرض...». فضائل الأنام، ص ١٠.

١٩ ـ لائوست. سياست و غزلي، ج ١، ص ١٨٥.

٢٠ ـ أنظر: مقدمة جلال الدين همايي لـ إمام محمد غزالي، نصيحة الملوك، سلسله انتشارات انجمن آثار ملّي، تهران، ١٣٥١ ش، ص ٧٢، و مابعدها. و كذلك الدكتور عبدالحسين زرين كوب. فرار از مدرسه (حول حياة و فكر إلي حامد الغزالي)، انتشارات انجمن آثار ملي، تهران، ١٣٧٣ ش، ص ٢٥٤ و مابعدها.

٢١ ـ اما محمد غزالي. فاتحة العلوم ـ نقلاً عن محمد عبد المعز نصر. «فلسفة السياسة عند الغزالي» في «ابوحامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده»، المجلس الأعلى لرعاية الفنون و الآداب و العلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

٢٢ ـ سيد جواد طباطبائي. مقدمة تاريخ فكر سياسي در ايران، ص ٣٠٤ و مابعدها.

٢٣ ـ الامام محمد الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد، مكتبة الجندي، القاهرة، ١٩٧٢ م، ص ١٩٨.

٢٤ ـ فاتحة العلوم ـ نقلاً عن محمد عبد المعز نصر. «فلسفة السياسة عند الغزالي» ص ٤٥٥.

٢٥ ـ الامام محمد الغزالي الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٩٨.

٢٦ ـ نفس المصدر، ص ١٩٩.

٢٧ ـ فاتحة العلوم ـ نقلاً عن محمد عبد المعز نصر «فلسفة السياسة عند الغزالي»، ص ٤٥٧.

٢٨ ـ الامام محمد الغزالي، المستظهري ـ نقلاً عن محمد عبد المعز نصر، نفس المصدر، ص ٤٦٣.

٢٩ ـ لائوست، نفس المصدر السابق تحت رقم ٥، ج ١، ص ١١٦ ـ ١٧٠.

٣٠ ـ يقول الغزالي في المنقذ من الضلال، ضمن الاشارة إلى رسالة كتبها في نظرية الإمامة: «الهدف من هذه الكتب، بيان ميزان العلوم و اظهار الاستغناء من الامام المعصوم؛ بل المقصود أنّ هؤلاء، اي مدّعو الإمامة الفاضلة، ليس معهم شئ من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء، بل هم عن اقامة البرهان على تعيين الامام عاجزون طال ماجاريناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم و الى المعلم المعصوم، و انه الذي عينوه، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم، و عرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلاً عن القيام بحلها؛ فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، و قالوا: لابدّ من السفر إليه، و العجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم و التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً كالمتضمخ بالنجاسة يتعب في طلب الماء حتى أذا وجده لم يستعمله و بقي متضمخاً بالخبائث». المنقذ من الضلال. و قد أصدر الغزالي فتوى في امامة المستظهر بالله معتمداً على مثل هذا الاستدلال.

٣١ ـ الغزالي. نصيحة الملوك، ص ٢٣٥.

٣٢ ـ نفس المصدر، ص ١٤٩.

٣٣ ـ نفس المصدر، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

٣٤ ـ نفس المصدر، ص ٢٦٣.

٣٥ ـ نفس المصدر، ص ٨١

٣٦ ـ نفس المصدر، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

٣٧ ـ نفس المصدر، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

٣٨ ـ نفس المصدر، ص ١٧٨ ـ ١٧٩. قال الغزالي ايضاً: «إعلم أنّ زهد الناس من حسن سيرة الملك، و ينبغي على الملك أن ينظر فى عمل الرعية ـ القليل منه و الكثير؛ و ألا يرضى بعمل الانسانى السمّئ، و أن يحترم عامل الخير. و يكافئ المحسن، و يمنع السئ عن السوء و يعاقبه على سوئه؛ و ألا يحابي ليرغب الناس بالخير، و يجنبهم الشر. و إن لم يكن الملك ذا سياسة و ترك السمّي، فَسَد عمله معه. و قد قال الحكماء: «طبع الرعية من طبع الملك. فسوء عمل الرعية و حسدهم من الملوك، لأنهم يتطبعون به» نفس المصدر، ص ١٠٧.